التّوطين الثّقافي في المقال الإبراهيمي

The Cultural Settlement in the Articles of El-Bachir EL-Ibrahimi

د.مصطفى ولد يوسف

جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/03/07 **تاريخ القبول:** 2020/03/18

ملخص:

إذا كانت "الأدبيّة" منشغلة بالخرائط الدّاخلية للنّص فإن "الثقافيّة" تسعى إلى إزالة الحواجز بين الأدبي والثقافي؛ وبالتّالي لم يعد النّص مؤسسة أدبية، وإنّما صناعة "ثقافية".

لقد جسّد المقال الإبراهيمي انطلاقا من المحفل المجازي والبديعي ثقافية واجتماعية النّص الأدبي، من خلال تتبع مسارات المجتمع الجزائري، في ظل هيمنة الاستغراب الثقافي عبر الجغرافية الكولونيالية، فكان دور المقال الإبراهيمي الحرص على جودة الصياغة اللّغوية والطّرح الجريء للموضوعات لإحداث الشّرخ الثقافي المنتظر، ونسف مقولات المحتل التي روّجت فكرة موت الكائن الجزائري ثقافيا وهويّاتيا، وبالتالي مارس النّص الإبراهيمي سلطة الثقافة المضادة لإعادة الاعتبار للكون المحلي، وتقرير مصير هوية النّص، ومن ثمة هوية المجتمع الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الأدبيّة، المجازيّة، الأنساق الثقافية، الهويّة.

Abstract:

If literary works are preoccupied with rhetorical naps in the literary text, then the culture seeks to eliminate the barriers between literary and cultural, therefore the in no longer a literary institution but rather a cultural industry.

On the basis of the allegorical and cultural forum, the article embodied the literary text by tracing the paths of Algerian

society, in light of the dominance of cultural alienation across the colonial geography, and from there writer tried to create a cultural rift, blowing up the statement of the occupier that promoted the idea of the death of the Algerian cultural and identity, so practiced the writer his anti – alienation power.

Keywords: literary, metaphor, cultural, identity.

1- الأدبي والثّقافي وعقد الائتمان:

إنّ النص الأدبي كتابة متجاوزة لتضاريس الحروف والتّراكيب، لأنها ممارسة خاصة ولذلك أقر "جاكبسون" بأنّ الأدب ليس هو الغاية وإنّما الأدبيّة "littéralité" أي ما يجعل من نص ما نتاجا أدبيا[1]. ومن ثمة فالملفوظ الأدبي هو كون معتز بلفظه، مطابق للقواعد اللّغوية والنّحوية، وذو قيمة شكلية رفيعة؛ لا يفهم من هذا الكلام أنّه أداة تواصل فقط وإنّما يغدو النّص مشروعا لذاته، ومصدرا للمتعة[2] في ذاته؛ وهذا الافتراض النّقدي المتحفي بالنّص المغلق أفضى إلى مقولات النّاقد الفرنسي "بيير ماشيري" الذي أزاح المؤلف في إنتاج النّص، وجعل من هذا الأخير منتج ذاته من خلال المؤلف[3]. وما يضمن إنتاجيته القارئ الأدبي، فتتعدد هويته ليصبح حقلا مفتوحا على الامتداد التأويلي.

في إزاحة المؤلف أو إعلان موته كما فعل "رولان بارت" تشويش على النّسب الاجتماعي والثقافي للنّص، فهذه "اللّقيطيّة" "Bâtardise" تنسف مقولة النّاقد "إيجلتون" التي ترى في الأدب مشروعا تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا[4]. وليس فقط مشروعا نصّيا وبالتّالي فهو المرشّح المناسب للثّقافة بمفهومها الأنثروبولوجي لا الإيديولوجي فقط: فكان البديل الثّقافي على حساب "الأدبي" في بعث نفس جديد للنّص الأدبي، من خلال تحريره من المؤسسة الرّسمية وأعني البلاغة الكلاسيكية غير المنفتحة على الثّقافي.

لقد عمدت التّاريخانيّة الجديدة "new-historicisme" "إلى قراءة النّص الأدبيّ في إطاره التّاريخي والثقافي، حيث تسهم الإيديولوجيا مع صراع القوى الاجتماعية في تشكّل النص"[5]. ومن ثمّة يتحول النّص الأدبي من بلاغة الأثر إلى أثر البلاغة، من خلال قراءة عمودية له ساعية إلى استعادة القيم الثقافية التي امتصها[6]. وعليه لابد من ربط العلاقة

بين المدلول البلاغي والمدلول الثقافي عبر نظام التّبني التّاريخي، لأن المعاني الجديدة ثقافية بالأساس وليست مختزلة في الدّرس البلاغي أو الأسلوبي، فليس هناك نص أدبي له معنى في حد ذاته، وإنّما يستوحي معناه أو معانيه في تعاطيه بالثقافيّ "culturalité"، متجاوزا بذلك شبكات العلاقات الدّاخلية المكونة له.

إنّ النّص الأدبي هو الجانب المظلم من الإدراك الذي نميل إلى إخفائه، فنكتفي بتتبع هيكلته، وكيفية تشييده، ومدى احترامه للمنظومة التّعبيرية وأثر المتعة في قراءته، في حين النّص الثقافي هو الجانب المشرق من الوعي الإدراكي، حيث يعادي الكسل الذّهني والتّفكير النّمطي أو المفروض اجتماعيا أو سياسيا، فيقتفي آثار المضمر وغير المعلن، منتقلا من جمالية النّص إلى جمالية الوعي، وهو مكافأة غير مباشرة للمبدع، لأنّه لم يعد المعلم اللغوي، وإنّما حامل لمشروع ثقافي قد ينقلب عليه أو يكون صانعا لرؤى غير متوقعة، وبالتالي لا يمارس عليه قهر التّفسير الرّسمي الذي يروّج للمتفق عليه، ويعادي المختلف حوله، فتسّوق مفاهيم وأذواقا وأفكارا محددة سلفا، مهيكلة وفق استراتيجية عليا، تسعى إلى صناعة القارئ المرسّم، والنّاقد الفاقد لقوة الاقتراح لإعاقة وعيه، فيمارس ضغطا على القارئ "السّائح" ليتلاءم مع رؤيته القاصرة، ولكن مدة صلاحيتها في نهاية المطاف محدودة في الزمان والمكان.

يقوم النّص الأدبي على عقد انتمائي بين الأدبيّ والثقافيّ، فكل مراوغة لطرحه كبلاغة موت له، لأّنه غير قابل للانغلاق، ولابدّ من تهويّته، ليخلق لنفسه علاقات دلالية، تثري مساراته الثقافية، منطلقا من جذوره التراثية والأبستمولوجيا، مركّزين على مواقع الانحرافات النّصّية وليس ما نلمسه من صرامة في التنظيم الشّكلي والخطاب الرّسمي الذي يريد إقناعنا به.

لقد حاول النّقد التقليدي أن يجعل من النّص مسلمة بديهية، حيث ثمة قوالب نقدية ومعرفية متفق عليها في إطار المؤسسة الرّسمية التي لا تدين بالقراءات المخالفة لها، التي تربطها بالانتماء الثّقافي العميق للمنتج النّص، فلحظة تكونه أساسي[7]، يكتسب عبرها تفسيره الثقافي.

2– المقال الإبراهيمي كمتوالية ثقافيّة:

لا شكّ أنّ المقال الإبراهيمي حافل بالمتواليات البلاغيّة عبر سلسلة من الجمل الاستعارية أو الكنائية أو المجازية؛ وكل هذه الهندسة البلاغية معولبة في وحدات صوتية منشأ أغلبها التّحسين البديعي اللّفظي كما هو الحال في الفقرة التالية: «في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة –ليست كالمطابخ– تطبخ فيها الآراء والأفكار... والقائمون على هذا المطبخ طهاة يحسنون الفن، دهاة يحكمون بأول الظن... اجتازوا المراتب الإدارية من أدناها إلى أعلاه... في تلك الإدارة... معمل لصنع الرّجال على أشكال ومقادير مخصوصة، لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابلية واستعداد، وطوع وانقياد....»[8].

في الفقرة مظاهر نحوية وبلاغية هي مؤثرات صوتية تؤشر على الانتماء اللّغوي لها وهي العربية الفصحى، والانتماء الأدبي عبر التّنوع البياني والبديعي فيها، وذلك بذكر المجاز في قوله: «تطبخ فيها الآراء، معمل لصنع الرّجال على أشكال ومقادير...»، والبديع المتمثل في السّجع «استعداد...انقياد» والجناس غير التام في "طهاة...دهاة".

تحققت في هذه التّرسانة المجازية والبديعيّة أدبيّة المقطع، وهي صيغ جمالية خداعة، لأن الكاتب لا يرمي من ورائها التّهليل بالصّنعة اللفظية أو إبراز مفاتن اللسان العربي، وإنّما إعادة الاعتبار للهوية، لأنها بناء ثقافي[9]. وبما أن الذات يشكلها المجتمع ضمن خطاب تنتجه أجهزة الدولة على حد تعبير "فوكو"[10]، فالإبراهيمي في ظل السلطة الثقافية الاستعمارية المعادية للوجود العربي والإسلامي شكّل من خلال اللّغة، خطابه الأسلوب البيانيّ السّامي ثقافة مضادة تسعى إلى الخروج من حالة التّهميش الممارس على اللّغة العربيّة، فكان هذا السمو بيانا وبديعا تنديدا بالخطاب الكولونيالي الرّامي إلى إقصاء كل ما هو مرتبط بالكائن الجزائري من لغة ودين وتاريخ.

ليست اللّغة مجرد نظام علامات أو نشاط تواصلي فحسب[11]، وإنّما هناك قصدية ثقافية وراء كل نص، ودونها لا يتحقق المبتغى النّصي، وبالتالي فالمقال الإبراهيمي كنص يتجاوز التّماسك النّحوي والإطار المجازي له، ومن ثمة فهو إنجاز عمودي "vertical"

وليس أفقيا فقط، لأنه ذو محمول ثقافي، يؤطر الهامشّي من الكون الجزائري، لغة ودينا وتاريخا وحالة، وبالتالي لا ننخدع بالظاهر حتى لو كان عاديا أو مبتذلا، ففي قوله: «إن جمعية العلماء ترى أن النوادي الإسلامية ... هي وسط جامع ... وأنّ وضعية النوادي تعتمد على دخل مالي خاص بين المشروبات المباحة التي تباع فيها فكان من حلقات تلك السلسلة الموضوعة لتطويق التعليم العربي ... ذلك القرار الغريب الذي يمنع بيع المشروبات المباحة في النوادي...»[12].

أمامنا مقطع يؤكد الهوية وفق بناء ثقافي، فالنّوادي مؤسسات ثقافية ساهرة على مقاومة شراسة المحتل في تطويق أصالة الشّعب للقضاء على شخصيته، فهي لا تختلف عن النّضال السياسي أو الثوري، بوصفها معادلا بديلا عنه، فعندما تقوم بتفكيكه ثقافيا تخلص إلى ذلك التماسك الدّلالي بين اللغوي والثقافي من خلال ما يلي:

النوادي ← الإسلامية
المدرسة ← الجامع
التعليم ← العربي
المشروبات ← المباحة
القرار ← السلطة الجائرة
المنع ← المقاومة

في هذه المكونات اللّفظية الأساسية، توظيف براغماتي بامتياز، عبرها يتكشف للمتلقي الغريب سؤال الهوية على السّاحة الجزائرية، ومن ثمة فكل تملص من الإدارة الاستعمارية تأجيل للإجابة عنه، فحتى المفهوم الاقتصادي للمشروبات المباحة ينحو إلى المقاومة الثقافية للمحتل على الرّغم من أنه مكون اقتصادي. ففي المقطع إثبات للصّراع اليوميّ الشرس بين المحتل المختنق في أطروحاته المتعالية حول الفرنسي المتحضر والمتفوق ومن ساروا على دربه من مشوهي الهوية الذين حاولوا تمريرها، وبين فئة قليلة من الجزائريين الذين كان المنفى الثقافي مصيرهم، لأنّهم أسسوا التّحدي وقاموا برفع المتدنّي ليكون ساميا ومرفوعا، فبمقابل طرح لغة عربية سوقية بديلة عن الفصحى كما فعلت بعض الدوائر

الاستعمارية للترويج لها كانت الكتابة السّامية والهادفة للبشير الإبراهيمي وهذا المنحى الصدامي تجاوز البحث عن المطابقة بين الدخيل والأصيل ليتميز عبر الهوية الجزائرية الخاصة ففي قوله: «وفصل الدين عن الحكومة مبدأ جمهوري فرنسي ولكنه من أكذب المبادئ بالنسبة إلى دين الإسلام في الجزائر فمازالت الإدارة الجزائرية ... متمسكة بما أورثها الاستعمار من مساجدنا أكثر وأشد من تمسك المتدين بدينه، لا تبالي بحقوق طبيعية ولا بمبادئ جمهورية، وبمفارقات دينية ولا بعواطف إنسانية...وإلّا فما بال هذه الحكومة لم تتسلق على معابد اليهود، ولا نقول عن معابد المسيحيين...»[13].

إنّنا أمام منتج الخطاب الثقافي إذا وضعناه في سياقه التاريخي لأنه ينتسب إلى مقام كولونيالي وإقصائي، وبالتالي فهو مقال تصادميّ ينشد التّحذير من الخطاب الاستعماري الحامل لتداولية الزّيف وافتراض غير المحقق، ففي فرنسا تكريس اللائكيّة أو العلمانية كمبدأ دستوري جوهري، لكن في الواقع تفريط فيه عندما يتعلق بالدين الإسلامي.

3– الثقّافي الموطّن في البلاغي:

في المقال الإبراهيمي استهواء ثقافي معلّب في بيان ساحر، يجمع بين الأخلاقيّ "ethos" والانفعالي "pathos" والهويّاتي، حيث يعطي الأهمية للمنظومة الدّينية" la nomenclature religieuse" وثقافة البلاغة الكلاسيكية، لكنّه لا ينغلق على المقام بقدر ما يسعى إلى توسيع دائرة الحوار أمام هذا المحتل، وهو مدجج بالسّامي لغة وأسلوبا ليدحض فكرة موت اللغة العربية في الجزائر، وبالتالي حلّ المقام محل البيان، والثقافيّة محل الأدبية، ومن ثمة انطلقت البلاغة الموظفة في المقال الإبراهيمي في تناول الخطاب من ثلاث زوايا هي:

أ– تاريخية[14]: الانخراط في المحطات التّاريخية التي عاشتها الجزائر، فالمقولات البلاغية كفيلة بتأويل النص الإبراهيمي وفق اللّحظة التّاريخية كأن يقول: «... إنّ جلال العلم لا يتفق مع أوساخ السياسة ... فيقذف بأعضاء الجمعية في السجون، ويلقي بهم في المعتقلات مع المجرمين»[15]. فالنسق البلاغي «جلال العلم لا يتفق مع أوساخ السياسة» مرتبط ارتباطا عضويا بالسّياق التاريخي المتمثل في اتهام المحتل الجمعية بأنها تمارس السّياسة.

ب– مقاليّة: أي تكيّفت الأنساق البلاغية مع متطلبات المقال الحديث، حيث تجمع بين الانزياحيّ والتداولي المقاميّ[16]. كأن يقول: «إنّ شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها فمن الواجب أن يصان هذا الدّم عن أخلاط الفساد ... ومن الواجب أن تربي ألسنتهم على الصدق وقول الحق...»[17].

إنّ الدّم المقصود هو ذلك النشء الذي يحضر في مختبرات مدارس الجمعية، الذي سيسهم الكثير من شبابها في حرب التحرير، فكان منهم الشّهيد والسياسيّ والمعلم بعد الاستقلال؛ دفاعا عن اللغة العربية والإسلام الذي حاول سماسرة العقيدة تشويهه بجهلهم.

ج– ثقافية: هذا أمر مخطط له في مشروع الإبراهيمي، وبالتالي فالمقصدية تحصر جميع الوظائف اللغوية والأسلوبية والتّعبيرية للثقافيّة، متجاوزة الأدبية، فالكاتب في مقالاته ينشد جملة من الرّؤى منها:

1– صورة الإنسان الجزائري المنكسر ثقافيا ومعرفيا، سببه سياسة المحتل القائمة على التّخريب الذهني، ولكن هذا الهامشيّ لم ينته بعد، لأنّ فيه المتمكن من لغته ودينه وبالتالي على المستعمر ألا يستعجل إعلان النّصر على الهوية الجزائرية.

2– الإلحاح على انتماء الجزائر للفضاء العربي والإسلامي ونسف كل ما يشاع عن ضياع الوطن/الهوية نهائيا.

3– الإيمان بالغد، وهذا الغد قد خطط له عبر المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء، وهي مقدمات لإحياء الأمة الجزائرية.

لا أحد ينكر أن المشرق العربي ينظر إلى الجزائر بوصفها مقاطعة فرنسية، بعدما فقدت أهم ركن من أركانها، وهي لغتها العربية وموروثها الأمازيغي العريق في ظلّ هيمنة مطلقة لثقافة المحتل، وما لحق بالهوية المحلية من ضرر مادي ومعنوي كبير، ومن ثمة فالمقال الإبراهيمي حامل لخطاب ثقافي مؤدلج "Discours culturel idéologisé" يخاطب المحتل كرافض مباشر لكل الحملات السّاعية إلى تذويب الكائن الجزائري في خطابات المهادنة والتّمسيخ الثقافي، وفي الوقت نفسه يخاطب الشّرق العربي عبر لغة راقية تتحدى

قاماتهم في البيان العربي، داحضة مزاعم البعض بأن الجزائر فرنسية، ومن ثمة نصل إلى إدراج الكتابة الإبراهيمية في دائرتين هما:

أ– الدّائرة الشّخصية: وفيها يسعى المقاليّ إلى التّخلص من عقدة الشرق العربي بأنهم أهل بيان دون سواهم لإعادة الاعتبار والثقة للذات الجزائرية المهمشة، فيتحول البيان إلى شكل من أشكال التعويض النّفسي لحالة العجز المادي أمام الترسانة التخريبية التي وظفها المحتل لإبعاد الجزائر عن محيطها العربي والإسلامي، ومحو موروثها الأمازيغي بالتّركيز على الوجود الروماني، ثم الفرنسي لاحقا: «إن الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي متين القواعد والأواسي، وقد جلا الإصلاح حقائقه، فكان له منه كفيل مؤتمن واستنارت بصائر المصلحين بنوره، فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه (القرآن) إلى منزلته في الإمامة فكان له منه الحمى الذي لا يطرق والسياج الذي لا يخرق»[18].

في الفقرة ممارسة الكتابة الاستعراضية لمحو تلك النظرة الخاطئة على أن الجزائر فرنسية وليست فيها رجال يتقنون البيان العربي، لأن هذا الخطاب بياني، وفي الوقت نفسه ثقافي موجّه للمحتل كإعلان عن القطيعة الكلية معه لغة ودينا، ولهذا المشرق الذي لا يريد أن يسمع بأن في الجزائر قامات تتقن البيان العربي، وبالتالي تضاهي قاماتهم وتتجاوزها.

ب– الدّائرة الثقافية والاجتماعية: يتحقق فيها تلك الرّغبة في مشاركة الرأي العام المحلي في مشروعه الصّحويّ لمجابهة المتربصين بالهوية الجزائرية.

خاتمة:

عندما يكتب الإبراهيمي يستحضر ذاته، فيمثلها عبر البيان "autoreprésentation" فيتحول إلى رمز لغوي، لا يكتفي بسلطة التقليد، وإنّما يبدع لغة تنافسية، تدحض ضياع البيان العربي في الجزائر، فهو بذلك ذو دلالة ثقافية لا أدبية فقط.

كما أنّ الإبراهيمي في كتاباته مدرك بضرورة الخروج من حالة "ghetto" أو الضاحية المفروضة على اللغة العربية وتسويقها على أسس صحيحة، لأنها عماد الدّين والهوية فحارب بذلك الضّمور اللّغوي الذي حل بالعربيّة في الجزائر بتقديم التّميز، فأعطى للبيان بعدا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا في ظلّ الحرب المعلنة على الأصالة.

الإحالات والهوامش

(1)– بول آرون وآخرون، معجم المصطلحات الأدبية، تر: محمد حمود، المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ،ط1، 2012، ص95.

(2)– ينظر: ماهر شفيق فريد، ما وراء النّص، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2016، ص50.

(3)– ينظر: المرجع نفسه، ص59.

(4)– ينظر: المرجع نفسه، ص69.

(5)– ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2 2000، ص45.

(6)– ينظر: المرجع السابق، ص نفسها.

(7)– ينظر: إبشوفوكيما وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين، تر: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2004، ص16.

(8)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع أحمد طالب الإبراهيمي الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 1997. ص 87–88.

(9)– ينظر: لويس. أ. منتروز وآخرون، التاريخانية الجديدة والأدب، تر: لحسن حمامة، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، ط1، 2018، ص171.

(10)– ينظر: المرجع السابق، نقلا عنه، ص 169.

(11)– ينظر: زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2003، ص21.

(12)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ص51.

(13)– المصدر نفسه والصفحة.

(14)– ينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغية والتاريخ والقراءة ،إفريقيا الشرق، المغرب، 2013 ص184.

(15)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ص61.

(16)– ينظر : محمد العمري، أسئلة البلاغية في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 186.

(17)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ص 67.

(18)– المصدر نفسه، ص 82.